

الحمد لله الذي أدب رسوله بأحسن الآداب ؛ وقال في المنزل من الكتاب : "كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب" ؛ وأفضل صلاة وأتم سلام على المبعوث بين يدي الساعة ؛ وآله الغر الميامين والتابعين لدرب الأبرار الأحبة الأصحاب ؛ صلاة ربي وسلامه عليهم ما جن ليل وأضاء نور ومر سحاب ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا شك فيها ولا ارتياب ؛ وأشهد أن محمدا عبده ورسوله نعم العبد إنه أواب .

أما بعد :

فقد كنت جمعت نتفا حول موضوع المعرب والدخيل في كلام العرب ؛ ونسيت الأمر تماما ؛ حتى وقفت على كلام عزيز للعلامة اللغوي علي الجارم في مقالات إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية ؛ مفاده حول مسألة التوليد في اللغة ؛ والذي له تعلق بجانب هام من اللغة ذو روافد كبيرة متشعبة ؛ ما يسمى علم الاشتقاق ؛ فكان خلاصة ذلك رجوعي إلى ما جمعته من قبل حول الموضوع وجعله في سلسلة مقالات حول المعرب والدخيل والمولد والمشتق ومدى التداخل بين هذه المصطلحات ، وارتأت أن تكون البداية بمقال حول المعرب والدخيل ، فكان هذا الجمع المكون من مقدمة ومطلب تمهيدي بعنوان مدخل إلى علم التوليد و الاشتقاق ومطلب ثان بعنوان المعرب والدخيل في اللغة العربية وخاتمة مستلة من مقال منشور بمجلة المنار حول التعريب والدخيل في اللغة العربية بدى مناسبا جدا لما حواه من نتائج وملاحظات هامة حول الموضوع والكتابة فيه .

المطلب التمهيدي : مدخل إلى علم التوليد و الاشتقاق :

قال العلامة الأستاذ علي الجارم :

"و التعرض للحكم بأن كلمة غير صحيحة و أن أخرى صحيحة ليس بالأمر السهل، و لا هو على طرف الثَّمَام، و إنما يجب أن يصدر عن نضج في اللغة و الأدب، و تمكن من طرائق العرب في تصريف الأبنية و مناحي استعمال الكلام، و رب كلمة لا تجد لها نصاً في معجمات اللغة و لكنها جاءت في أشعار المتقدمين، و عبارات كبار الكاتبين الذين يحتج بهم لمكانتهم في اللغة، فللجاحظ مثلاً كلمات لم نظفر بها في المعجمات و للإمام الشافعي في مؤلفاته ألفاظ لم تقع بأيدي اللّغويين، و هو الذي يقول فيه الأزهري صاحب الحكم : (وقول الشافعي نفسه حجة، لأنّه عربي فصيح اللهجة، و قد اعترض عليه بعض المتحذلقين فخطأه، وقد عجل ولم يثبت فيما قال، و لا يجوز لحضري أن يعجل إلى إنكار ما لا يعرفه من لغات العرب(*) . اهـ .

و قد كنت مرة أقرأ للمتنبي قصيدته البائية في مدح سيف الدولة التي أولها :

فديناك من ربع و إن زدتنا كرباً *** فإنك كنت الشرق للشمس و الغربا

فتلاقيت بهذا البيت :

و يخشى عباب البحر و هو مكانه *** فكيف بمن يغشى البلاد إذا عبّأ

و رأيت أن الشراح جميعاً فسروا عب بمعنى زخر و ارتفع مأؤه , فأحببت أن أرجع إلى المعجمات لدراسة هذا الفعل دراسة كاملة , فلم أجد فيها نصاً بهذا المعنى , ففيها : عب فلان الماء يعبه : شربه مرة واحدة , و عب النبات : طال , عب الرجل : إذا حسن وجهه بعد أن أصابه تغير و لم أجد بين صفحتها فعلاً مثل عب البحر إذا زخر و ارتفع مأؤه.

و لكنني أجد فيها كلمة العباب و أرى أنهم قالوا في تفسيرها : عباب الماء : أوله و معظمه و ارتفاعه و هنا ينقذي و ينقذ المتنبئ على الصرف , فيقول : إن الماء إذا تدفق و ارتفع و سمع له صوت و نثيج , و إن الغالب في الأفعال الدالة على صوت — من غير بابي فرح و كرم — أن يكون مصدرها على فاعل أو فعال , كصهيل و صراخ , و إذا فعباب هذا إنما هو مصدر ل ((عب)) بمعنى زخر , و إذا يكون اللغويون قد ذكروا المصدر و أغفلوا الفعل ثم يقول علم الصرف ثانية : أن مضارع عب الماء يجمل أن يكون يعب بكسر العين , لأنه فعل مضعّف لازم و الغالب في هذا أن يكون من باب ضرب.

و ربّ كلمة لهج بها المتعلمون بأنها خطأ , و جرت عليها أقلام المعلمين الحمر قاسية غاضبة , لأنهم لم يروها في كتب اللغة ماثلة بنصها و حروفها و اشتقاقها.

و ذلك ككلمة : عائلة , لماذا ؟ لأنها ليست في المعجمات . يا سادتي إن هذه الكلمة ليست مستحدثة في هذا القرن و لا في القرن الذي قبل , إنها وجدت في شعر لشعراء الدولة الأيوبية , و قد يكون لها ذكر قبل ذلك و لكنني لم أعثر عليه , و الدولة الأيوبية نشرتها في سنة سبع و ستين و خمسمائة , إذن مر على هذه الكلمة المسكينة تسعون و سبعمائة عام و هي تدور على الألسنة و تكتب في الشعر , ثم نجى اليوم و نقول لها اخرجي من وركك أيتها الدعية اللزيقة فلست منا و لا من لغتنا لأنك لست في معجمائنا ! يا سادتي المعجمات لا تذكر المشتقات و لو استوفت المشتقات جميعاً لعادت حجماً كبيراً و عبثاً ثقيلاً.

تعالوا نبحث في هذه الكلمة من الوجهتين اللغوية و الصرفية , و تمهلوا فإن الحكم على كلمة بالإعدام يشبه قتل النفس البريئة بغير حق.

العائلة على وزن فاعلة , و هي مشتقة من عال ما في ذلك ريب , فلننظر إذن معاني الفعل : عال , فنرى علماء اللغة يقولون : عال الرجل يعول و يعيل إذا افتقر . يكفينا هذا فعائلة بمعنى مفتقرة , و لا شك أن زوج الرجل و صغارة مفتقرون إلى من يقوم عليهم و يموئهم , فعائلة الرجل المفتقرة إليه هي زوجه و أولاده , و هذا هو المعنى الحقيقي الذي يقصده الناس عند التعبير بكلمة العائلة.

ثم نعود إلى المعجمات ثانية , فنرى عال الرجل أهله يعولهم : كفاهم و ماؤهم و أنفق عليهم , و العائلة على هذا المعنى فاعلة بمعنى مفعولة , أي : معولة . واستعمال اسم الفاعل في معنى اسم المفعول شائع فصيح . قال الله تعالى : (فهو في عيشة راضية) أي : مرضي عنها , ثم إن هنا معنى بليغاً , لأن العائلة و إن كان كاسبها يموئها هي التي في الحقيقة تمونه , لأنها تدفعه إلى الكدّ و العمل و طلب الرزق.

قال تعالى : (لا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقهم و إياكم) فقد رزق الأولاد على رزق آبائهم , لأن الآباء بأبنائهم يرزقون.

جملة القول أن كلمة العائلة صحيحة من ناحية الاشتقاق اللغوي على كلا المعنيين لـ (عال) و مما يجري هذا المجرى كلمة فنان. نبت بين المتأدبين من يقول : لا تستعملوا كلمة فنان في صاحب الفن كالشاعر و...؛ لأنّ الفنان في اللغة الحمار الوحشي, فرجع الكتاب و المتعلمون إلى معجماتهم فوجدوا فيها:

و الفنان في شعر الأعشى حمار الوحش, لأن له فنوناً في العدو فآمنوا و صدقوا و سخروا من كل من يسمي الشاعر فناناً. و لو تأمل هؤلاء في عبارة اللغويين لرأوا أمرين حقيقين بالنظر, أولاً أنهم قالوا: الفنان في شعر الأعشى, أي أن الأعشى استعمل هذه الكلمة ليدل بها على الحمار الوحشي, فالفنان إذن ليس اسماً موضوعاً للحمار الوحشي يعرفه به كل العرب, على أن هذه الكلمة في الحقيقة في شعر الأعشى وصف لموصوف محذوف, و هذا كثير في لغة العرب فهو يقول :

و إن يك عريب من الشّد غالها *** بميعة فنان الأجارى مجذم .

أي بميعة حمار فنان الأجارى.

و ثانياً : أن اللغويين قالوا : (لأن له فنوناً في العدو) و هذا صريح في أن هذا الوصف إنما أطلق على حمار الوحش لأن له أنواعاً مختلفة من العدو و ما علمنا أن الوصف يختص بشيء بعينه , و لا أننا إذا وصفنا فرساً بأنه سباق لا يسوغ لنا أن نصف عالماً بأنه سباق في علمه و فضله.

على أن صيغة فنان من صيغ النسب الجارية على فعّال ك : لبّان , و زجاج أي : ذي لين , و ذي زجاج , فمعناها : ذو الفنون , فهي تطلق على كلّ صاحب فن في العدو أو غيره ..

هذه أمثلة قليلة عندنا منها كثير , تدل على أنّ كتب اللغة يجب أن تقرأ بفهم و بصيرة و تمكن في علوم الاشتقاق.

و هذه إشارات خاطفة للذين يتعجلون فيكتبون في الصحف و المجلات بأن هذه الكلمة خطأ و أن هذه الكلمة صحيحة من غير إمام و تريث و تدقيق ."(1). انتهى كلام الأستاذ علي الجارم .

وقد شذّعت لقوة الأستاذ في توليد المعاني والمباني وقد كنت في أحد المقالات ذكرت ترجمة لبعض الأعلام عندنا في الجزائر المحروسة تحت عنوان : لما يغيب موت العلماء في حين إشهار أهل المعازف والقنا ؛ و مما جاء فيه وله تعلق بالموضوع:

" الإمام الميموني (2) يستفسر عند سؤالنا عن بعض الرجال قائلاً: من المتقدمين هو أم من الحادّرين، والله يعلم سبحانه مدى شدهي وأنا أسمع هذه الطريقة في التعبير فأندفع تلقاء كتب العربية أعمل فيها النظر مجيلاً فكري لعل وعسى أن أظفر منها بمعنى أستجمع فيه ماقد يكون شارحاً وموضحاً لما أخذ

إمامنا فلم أظفر من ذلك إلا بما أظنه إشارات خفية مقاربة من وجه تنأى من وجوه وكان أقرها للمسعى:

قول الفيروزآبادي صاحب القاموس:

"الحَدْرُ : الحُطُّ من غُلُوٍّ إلى سُفْلٍ كالحُدُورِ؛.....وَتَحَدَّرَ: تَنَزَّلَ" (3) .

وابن فارس في المقاييس:

"(باب الحاء والdal وما يثلاثهما)(حدر) الحاء والdal والراء أصلان: الهبوط، والامتلاء، الأول

حَدَرْتُ الشيءَ إذا أَنْزَلْتُهُ. والحُدُور فعل الحادر. والحُدُور، بفتح الحاء: المكان تَنَحَّدِر منه" (4)

وما ذكره أبو عبيدة معمر بن المثنى في رسالة (البرة والعققة) - من خلال نواذر المخطوطات لشيخ

المحققين عبد السلام هارون - فقال :

"ومنهم الخنافر بن موسى بن جابر بن شريح بن أرقم بن عبيد، وعق أباه فقال موسى فيه:

ويرفَعُ أقوامٌ أباهم و بعضهم إلى أسفل الوادي وما ضاقَ حادُرٌ

فذلك من لا يستحي من خزيةٍ وبعل الإمامِ و ابنهِنَّ الخنافِرُ " (5) .

وبالاستفادة مما اجتمع لدينا ومنه ما أسلفت ذكره من النقول مع ما اطمأنت النفس وركنت إليه

أن إمامنا عبر عن التأخر بلفظ يدل على التسفل والنزول هو قوله "الحادرين" فالسابق هو من وصل أولاً

وجاز والحادر هو من جاء بعده أو قل من يليه في المرتبة الزمنية وكأنه عد الناس منازل أعلاهم المتقدم

وفاة أو زمانا وأدناهم المتأخر وفاة أو زمانا وقد فتشت عن ذا اللفظ في كتب اللغة والأدب فلم أظفر به

على المعنى والسياق الذي جاء في كلام إمامنا-حفظه المولى من كل سوء-وهذا إن دل فيدل على مدى

الفهم العميق للغة القرآن والتي تلجلجت في شغاف قلبه وخالطتها متغلغلة تأبى كل اختلاج فكان مثالا

يُحتدى وتلميذا نجيبا للجمعية؛ حاملة راية الذب عن كيان العربية؛ فكان شعارها : (الإسلام ديننا والعربية

لغتناوالجزائريون)، وقد مجد هذا الشعار بأبيات من الأشعار الحبر الإمام الرئيس عبد الحميد بن باديس

أبلغها: شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب.

وحقا فالتأمل في مسار القوم وما عاشوا في سبيله يعلم يقينا أنهم عاشوا للإسلام لا غير وكأن لسان

حالمهم يقول الإسلام أمانة واجب أداؤها وأداؤها لا يكون إلا كما هي صافية من كل ما يشوبها ولا

يستقيم الحال إلا بالحفاظ على لغته التي جاء بها لغة دستور الخالد فשמروا لتحقيق مأربنا عن ساعد

الجد ذبا عن دين الله واللغة التي خاطبنا بها في كتابه فالسنة طلابنا والبدعة اغترابنا والعربية لساننا؛-فالله

يرحمهم ويعفو عنهم ويضاعف لهم الأجر والثوبة . " (6).

ولكل هذا وما للموضوع من أهمية في كتابة الشعر و تصحيح تجربة النثر رأيت وضع هذا الجمع

المختصر حول المعرب والدخيل ؛ في انتظار مواضيع أخرى حول التوليد بنوعيه والاشتقاق بأنواعه ومدى

تداخل المصطلحات ، حتى تكتمل الصورة ويجتمع المقصود فيسهل تناوله على مبتغيه، والله أعلم وأحكم، وهو الهادي سبحانه لا هادي إلا هو العزيز الحكيم.

المطلب الثاني : العرب والدخيل في اللغة العربية :

- جاء في التوقيف على مهمات التعاريف لمحمد عبد الرؤوف المناوي

":العرب لفظ غير علم استعمله العرب في معنى وضع له في غير لغتهم." (7)

- وجاء في المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده :

"وكلمة دخيل : أدخلت في كلام العرب وليست منه ،استعملها ابنُ دريد كثيراً في الجمهرة." (8)

- وجاء في مقدمة المحقق من كتاب إسفار الفصيح لأبي سهيل الهروي حين ذكره لمنهج الهروي في كتابه وما جاء فيه من مسائل اللغة العربية وما يرتبط بها من قضايا :

((أشار إلى كثير من الألفاظ الأعجمية المعربة، وبلغ ما ذكره منها نحو اثنين وأربعين لفظاً، وقد

جرى في تناوله لهذه المعربات على أساليب مختلفة، منها: أن يذكر اللفظ المعرب ويشير إلى اللغة التي عرب منها، وأصل نطقه في تلك اللغة ومعناه، وسار على هذا النهج في شرح أكثر الألفاظ المعربة، ومن ذلك قوله: "وأما كسرى فمعناه: الملك الأكبر من ملوك الفرس خاصة... وأصله في كلام الفرس "خسرو" بجاء مضمومة، وواو في آخره، والراء قبلها مضمومة أيضاً، وقيل: أصله عندهم: "خسر" بجاء بدل الواو...". وقوله: "وهو الزئبق... وهو فارسي معرب، واسمه بالفارسية جيفه". وقوله: "يقال: هي بغداد.... وهي فارسية معربة، وأصلها "باغ داذ" ف"باغ" اسم البستان بالفارسية، و"داذ" اسم رجل، فكأنهم أرادوا بستان هذا الرجل. وقوله في البأج: "وهي معربة، وأصلها فارسية، وهي كلمة يؤتى بها في أواخر أسماء الطبخ، كما يؤتى باللون بالعربية في أوائلها، فيقولون: "سكباج" ف"سك" بالفارسية اسم الخل، وبأج أصله بالفارسية: "واه"، فلما عربت نقلت الواو والهاء إلى الباء والجيم وهزمت العرب ألفها". وقوله: "وهي الأبله.... وهي نبطية معربة، وأصلها بالنبطية "هوب ليكا". وهذه المرة الوحيدة التي ذكر فيها لفظاً، معرباً من النبطية :

* أن يكتفي بذكر اللفظ المعرب واللغة التي عرب منها، ولا يذكر شيئاً عن أصله، كقوله: "وهو الخوان: للذي يوضع عليه الطعام، وهو فارسي معرب". وقوله: "وهو الجص: لحجارة تحرق ويبنى به، وتخصص به الدور. وهو فارسي معرب". وقوله: "فأما الصولجان: فمعروف.. وهو فارسي معرب."

* أن يشير إلى اللفظ الأعجمي المعرب من غير ذكر اللغة التي عرب منها، كقوله: "وهو الفلفل: لهذا الحب المعروف من الأباريز.... وهو أعجمي معرب"، وقوله: "وهي صنفوق: لخليل باليمامة. وقيل: إنها أعجمية معربة."

وذكر أن الإيجانة فارسية معربة، ولم تذكرها كتب المعربات، وذكر ابن دريد أنها عربية معروفة. وأشار في تفسير بعض الألفاظ المعربة إلى ما يقابلها من مفردات عربية، فذكر في مقابل الرصاص الصرفان، وفي مقابل الشهريز العجوة، وفي مقابل التوت الفرصادوفي مقابل الزئبق الزاوق، وفي مقابل الإسوار الفارس. وفعل عكس ذلك في بعض الألفاظ العربية، فذكر مقابلها الأعجمي، فذكر في مقابل الجد البخت، وفي مقابل الرحلة الفرفخ، وفي مقابل الطلاوة الخرمية.

وقد ينص على عربية بعض الألفاظ دفعا لتوهم أنها معربة، كقوله: "وأما المنديل فعربي معروف... وكذلك القنديل عربي أيضا"، وقوله: "وهو السكين: عربي معروف."

ومما يتصل بهذا الموضوع إشارته إلى خلاف البصريين والكوفيين في حركة الكاف من كسرى حيث يقول: "والكوفيون يختارون كسر الكاف من كسرى، والبصريون يختارون فتحها." (انتهى كلام المحقق ونقله (9) .

- وجاء في مجلة المنار لمحمد رشيد رضا عند تقريره لكتاب عنوانه : (الاشتقاق والتعريب) فقال (10) ((قد علم قراء المنار في العام الماضي، ما كان من أعضاء نادي دار العلوم من المناظرات في مسألة التعريب، وقد عنى الشيخ عبد القادر أفندي المغربي أحد محرري جريدة المؤيد في أثناء ذلك، بوضع كتاب مستقل في المسألة، وطبعه في هذا العام، فبلغ زهاء 150 صفحة بقطع كتاب الإسلام والنصرانية، وقد ترجم المؤلف كتابه بقوله فيه: يبحث في ما يعرض للغة العربية من تكاثر كلماتها بواسطة الاشتقاق والتعريب، وأن هذا الأخير طبيعي في لغتنا وفي غيرها من اللغات، وأن استعمال المعرب لا يحط من قدر فصاحة الكلام والاستشهاد على ذلك، فهو إذاً مؤيد الرأي القائلين بجواز التعريب والتصرف في اللغة بحسب الحاجة، بل توسع في ذلك بما لا يوافقونه كلهم عليه فيما يظن، ودعم كلامه بضروب من الأمثلة والشواهد والدلائل، لم يسبقه إليها الباحثون، وقال في أواخر الكتاب ما نصه :

الخاتمة

قد تحصل معنا أن الكلمات التي تستعمل اليوم في اللغة، وينطق بها المتكلمون بتلك اللغة - قسما: قسم عربي محض، وقسم دخيل، والدخيل أنواع: منه ما أدخل أهل اللغة أنفسهم إلى لغتهم قبل الإسلام؛ كسندس إبريق. ويسمى في الاصطلاح معرباً، ومنه ما أدخله المولدون في صدر الإسلام ويسمى مولداً، ومنه ما أدخله المحدثون بعد هذين الدورين ويسمى محدثاً أو عامياً، والطريقة في إحداث النوعين الآخرين المولد والعامي - قد تكون الاشتقاق: كالعربية والبارود والفسقية قد تكون التعريب: كالبوس والباذر والماهيمية، وقد تكون التصرف في الاستعمال بأن نستعمل الكلمة على خلاف المعنى المستعملة فيه عند العرب: كالقطر و القطائف. والدخيل بأنواعه الثلاثة لا يحط من قدر الكلام العربي إذا وقع فيه، وإن كان في أصله غير عربي؛ لما قدمناه من الأدلة على ذلك عند الكلام على التعريب، والأدلة المذكورة تصلح أن تكون مقدمات منطقية نتيجتها (أن الكلمات العربية المعربة عربية أو بقوة

العربية)، حتى لا تكون تَمَّ فرق في صحة الاستعمال بينها وبين تلك التي تكون عربية الأصل : بحيث يصح لك أن تستعمل كلمة (رصاص) الأعجمية المعربة في كل موضع تستعمل فيه كلمة (صرفان) العربية ، وما يدرينا أن صرفان وأمثالها من الألفاظ القديمة التي نحسبها عربية والتي لا رائحة للاشتقاق من مادة عربية غير عربية في أصلها ، وإنما هي دخيلة . وقد ذكرنا في جملة تلك الأدلة دليلاً لا نزاع في صدق دلالتة: وهو أن علماء البادية أنفسهم، حصروا شروط فصاحة المفرد في ثلاثة أمور: خلوصه من تنافر الحروف، ومن الغرابة ، ومن مخالفة القياس، ولم يشترطوا في فصاحته قط أن يكون عربيًا حقًا، لا شائبة فيه للعجمية . إذا راعيت في الكلمة الدخيلة التي تودعها كلامك خلوصها مما ذكره علماء البلاغة ، كان كلامك فصيح المفردات ، وعليك بعد ذلك أن تراعي سائر ما اشترطه أولئك العلماء في فصاحة الكلام وبلاغته . حتى إذا فعلت كان كلامك فصيحًا بليغًا.

لا يكون كلامك فصيحًا : إذا أودعته من الكلمات العربية ما كان غريبًا عن أفهام المخاطبين ، أو ما تنبو عنه أذواقهم وتتجافى طباعهم ، مثل أن تقول : (وكان الطهارة يغرفون ألوان الطعام بالفشليل ، والفشليل كلمة معربة عن قفليز الأعجمية ، ومعناها المعرفة كما لا يكون فصيحًا إذا أودعته من الكلمات العربية المحضة ما كان من بابه تلك الكلمات : كأن تقول : (أتانا مختلاً في مشيته . منفشلاً للحيته) تعني : منفشاً لها . أو تقول : (لحاه الله من رجل عفنجش) أي فظ جاني الطباع . من هذا القبيل الكلمات الإنكليزية أو الألمانية مثلاً التي تكون مخارج حروفها صعبة متنافرة ، يتعذر أو يتعسر علينا النطق بها . ولم نعهد مثلها في مخارج لغتنا . حتى إذا اضطررنا إلى إدخال كلمة من هذا الصنف في لغتنا ، كان علينا حينئذ أن نشذبها ونهذبها ، ونوفق بينها وبين أوزان لغتنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً ؛ كي تواتينا ويسهل علينا النطق بها . وإلا كان علينا أن نهجرها ، ونعد الكلام الذي يتضمنها غير فصيح كما إذا تضمن كلمة متنافرة مثلها من الكلمات العربية الأصل كالمعنع وهو اسم نبات . قيل لأعرابي أين تركت ناقتك ؟ قال : تركتها ترعى المعنع . وكأن تقول لآخر : إياك أن تتزوج الهُمَّقعة بضم الهاء وتشديد الميم المفتوحة ، تعني الحمقاء الورهاء [أ] . واعلم أن الكلمات الدخيلة في لغتنا مهما كان أصلها ترجع إلى قسمين :

- قسم مدلوله الجوهر والأعيان مثل نرجس ولباس . وقسم مدلوله المعاني والأحداث مثل البوس ، فكللمات القسم الأول إذا شاعت بيننا وحلت في أسماعنا وتداولتها الخاصة كما تداولتها العامة ، وتنزهت عن أن تكون من (ألفاظ السفلة) كما سيحىء في قول ابن المقفع - ينبغي أن يجوز لنا استعمالها وإدماجها في كلامنا ؛ لأن الكلمة التي من هذا القبيل إما أن لا يكون لها مرادف في لغتنا أو لها مرادف مهجور ، وحينئذ يكون الوجه في استعمالها ظاهرًا . وعذرنا فيه مقبولاً وإما أن يكون لتلك الكلمة مرادف معروف ومشهور ، فيكون لنا الحق في أن نستعملها أيضاً ؛ اقتداءً بأهل اللغة أنفسهم الذين كانوا يتركون كلماتهم العربية إلى مرادفاتهما من الكلمات المعربة الدخيلة ، مثال ذلك كلمة (

كوسج) الأعجمية ، فإنهم لا يكادون يطلقون على الكوسج سواها . وقلما تراهم يستعملون كلمة الأئط العربية بل إذا وردت هذه في كلامهم فسروها بالكوسج ؛ لكونها أشهر منها وأعلق بأذهان الناس ، كما يفسر شراح الحديث كلمتي (الدجر) و (اللياء) العربيتين بكلمة اللوياء الأعجمية المعربة . وقد كثر استعمال الدخيل والإعراض عن الأصيل في كلامهم ، كثرة تشعر بأن هذا الصنيع طبعي في اللغة وضرورة لا يمكن دفعها . بل يشبه أن يكون قياساً لأهل اللغة من ورائه غاية محمودة : هي توسيع نطاق لغتهم وتسهيل أمرها على ممارستها . هذا في كلمات القسم الأول الذي مدلوله الجواهر والأعيان .

- أما القسم الثاني الذي تدل كلماته على المعاني والأحداث كاللبوس ، فهذا ربما ضر الاستكثار منه فيما أظن إذ يكون مدرجة لضياع اللغة ومسحها وتحويلها عن أصلها . وقلما نجد العرب نقلوا إلى لغتهم فعلاً أو مصدرًا أو أسلوبًا خاصًا من أساليب كلام الأعاجم . وشاهد ذلك معاجم اللغة ودواوين آدابها ، وإن كان شيء من ذلك فهو قليل جدًا ككلمتي (الهرج والنفاق) الحبشيتين [ب] وأكثر ما كان حدوث هذا النوع من الكلمات في زمن ترجمة الاصطلاحات العلمية في العصر العباسي ، أما في زمن الجاهلية فلعله لم يتخط القبايل التي عاشت مع الأعاجم وكثر امتزاجها بهم: كغسان ولخم وجذام ، ومثل هذا لا يصلح حجة للقياس والجواز العام ، نعم إن اللغة بمجموعها جواهر وأحداثاً محولة عن لغة أعجمية [ج] كما أثبتناه في صدر هذا الكتاب ، ولكن هذا في تحول اللغة وتولدها المتوغل في القدم ، لا في التحول التدريجي الذي يفهم من إطلاق كلمة التعريب ، والذي كان يحصل على ألسنة العرب بعد أن قامت لغتهم بنفسها واستقلت بأصولها وقواعدها ، فإنهم إذ ذاك ما كانوا يرجعون في وضع كلمات الأحداث والمعاني إلى الاستعانة بلغات غيرهم ، وإنما يرجعون إلى فضل ذكائهم وذلاقة لسانهم ، وحسن طريقة الاشتقاق في لغتهم ، فهم يضعون أو يشتقون للمعاني التي تحول في نفوسهم من الكلمات ما يغنيهم عن التطفل في ذلك على سواهم ، أما الجواهر والأعيان فقد يتعذر أو يتعسر عليهم أن يضعوا لها كلمات ، بعد أن ضرب المستبضعون والتجار في طول جزيرتهم وعرضها ، وهم ينادون باسم الخيار واللوياء والبادنجان ، والكوب والإبريق ، والمسك والبنفسج والسندس والإستبرق ، والفيروز والبلور والجام والدانق ، والدرهم والدينار والعربون ، الي غير ذلك من أسماء الأدوات والفرش والماعون .

وقد ضاق ذرع العرب بهذه الأسماء وأعجزتهم كثرتها ، فاضطروا إلى أن يرحبوا بها ، ويلقون حبلها على غاربها)). انتهى كلام صاحب المنار ونقله .

الهوامش

- (*) الأزهري: أبو منصور محمد بن أحمد الهروي (المتوفى: 370هـ)، تهذيب اللغة، ت: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1، 2001م، ج 3، ص 124 .
- (1) علي الجارم: جارميات، بحوث ومقالات الشاعر والأديب اللغوي علي الجارم، جمع: أحمد علي الجارم، دار الشروق، القاهرة، ط 2، 2001، ص 230-233

(2) أحمد بن السعدي بن أحمد بن محمد ميمون، والمولود خلال 1914م، بغسيرة ولاية باتنة الأوراس سابقاً، التحق بالجامع الأخضر بقسنطينة الذي كان يديره الشيخ عبد الحميد بن باديس، وفي سنة 1944م عاد إلى مسقط رأسه وتولى الإمامة والتعليم ببلدته إلى غاية 1946م فتلقى رسالة تشجيع من قبل الشيخ التبيسي، التحق بصفوف جيش التحرير سنة 1957م، توفي سنة 2010م بولاية بسكرة بعد تقاعده من الإمامة والخطابة بالمسجد المحاذي لمسجد الإباضية بجانب السوق وسط بسكرة. [الترجمة منتقاة من ترجمة موسعة غير منشورة عملها نجل الشيخ، أخذتها منه مباشرة في زيارتي للشيخ الميموني قبل وفاته بسنة تقريباً].

(3) الفيروزآبادي: أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب (ت 817هـ)، ت. محمد نعيم العرقشوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الثامنة، 1426 هـ، 2005 م، ج 1، ص 373.

(4) ابن فارس: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (ت 395هـ)، ت. عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ، 1979م، ج 2، ص 32.

(5) عبد السلام محمد هارون (المتوفى: 1408هـ)، نوار المخطوطات، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الثانية، 1393 هـ، 1973 م، ج 2، ص 366.

(6) من مقال لي منشور على الويب تحت

رابط: <http://www.tasfiatarbia.org/vb/showthread.php?t=5811>

(7) المناوي: زين الدين محمد القاهري (المتوفى: 1031هـ)، التوقيف على مهمات التعاريف، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، 1410هـ-1990م، ج 1، ص 310.

(8) ابن سيده: أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت. 458هـ)، المحكم والمحيط الأعظم، ت. عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1421 هـ، 2000 م، ج 5، ص 140.

(9) الهروي: أبو سهل محمد بن علي (المتوفى: 433 هـ)، إسفار الفصيح، ت. أحمد بن سعيد بن محمد قشاش، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، 1420هـ، ج 1، ص 168.

(10) محمد رشيد رضا (المتوفى: 1354هـ) وغيره من كتاب المجلة، مجلة المنار، مطبعة المنار، ج 12، ص 135.

[أ] المنار: إن بعض ما مثل به من الغريب، ليس مما يثقل على اللسان كمنفشل ولكنه غير مألوف لعدم صقله بالاستعمال فهو لا ينافي الفصاحة وما كان ثقیلاً كالمعنع الذي يذكرونه في كتب البلاغة، إنما ينافي مثله الفصاحة ويكره استعماله إذا كان له مرادف يقوم مقامه، والأحسن استعماله عند الحاجة إليه، ورأيت أكثر أدباء عصرنا غافلين عن هذا وذاك.

** (قلت: ومن الذين صرحوا بذلك إمام اللغة في زمانه العلامة الجزائري محمد البشير الإبراهيمي وغيره وألخص المسألة بقولي :

((أن الغرابة ليست مطلقة في الكلام العربي بل هي نسبية وأن ترك ما كان غريباً عند البعض يعد إعداماً لكثير من الألفاظ العربية والمعاني التي قد لا نصل إليها من دون تلك الألفاظ مع ما نقوم به من إفقار هذه اللغة الثرية والتي كان قميناً بنا نشر كلماتها وتشييرها بدل طمسها والاستحياء بها ...)) .

وقد ضمنت مقالاً لي وسمته ب: ((الدرس الدلالي)) مسائل جامعة وخواطر تدور في الفلك نفسه وتحيط به،

لعل الله ييسر تنقيحه وطرحه على هذا الصرح القيم .